الباب الخامس

الفتح العثمانى على مصر

مقدمة :

فى سنة ٩١٨هـ (١٥١٢م) ولى ملك آل عثمان السلطان (سليم خان الأول)، وكان مولعا بالحروب شديد الرغبة فى توسيع نطاق الدولة العثمانية، فعمل على محاربة المماليك لأقل سبب، فاتّهم (الغورى) بممالأة الفرس عليه (وهم يومئذ أعداؤه الأشداء)، وبأن بلاد الغورى صارت مأوى للعصاة والفارين من وجه سليم: فأدرك (الغورى) نيّاته، وجدّد جيشًا خرج به إلى الشام بالرغم من تأكيد سليم أنه لا يقصد بمصر سوءا. والتقى الجيشان بميدان (مَرْج دابق) شمالى حلب سنة ٩٢٢هـ (١٥١٦م)، وكانت مدافع العثمانيين قوية ففتكت بجيش المماليك وانهزموا، وفُلج (الغورى) لوقته فوقع تحت سنابك الخيل، فلم يوقف له على أثر.

وملك سليم الشام بلا مقاومة وزحف على مصر، فولى المماليك عليهم السلطان (طومان باى) فجمع من قدر عليه من الجنود والتقى مع سليم خان بالريدانية (العباسية الآن)، فانهزم طومان باى، ودخل سليم خان القاهرة.

وفرّ طومان باى ثم قبض عليه سليم وصلبه على باب زويلة. وبموته انقرضت دولة الشراكسة سنة ٩٢٣هـ (١٥١٧م)، وصارت مصر ولاية عثمانية. وتنازل الخليفة العباسى بمصر عن الخلافة لسلاطين آل عثمان.

وقد ظل النظام الإدارى والسياسى الذى وضعه السلطان سليم الأول، وعدّله السلطان سليمان القانونى معمولا به منذ ذلك الوقت حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى.

الفصل الأول
أجهـــزة الحكـــم

كانت الحكومة المركزية فى الآستانة هى السلطة التنفيذية فى الدولة، ويرأسها السلطان العثمانى.. وتتكون هيئة الحكم من: **الباشا أو (الوالى)** ويُعتبر وزير السلطنة العثمانية للشئون المصرية، ويُعين من قبل السلطان العثمانى ليكون نائبا عنه، ومقره القلعة بالقاهرة، وهو رأس الإدارة المدنية والمالية للبلاد. وعمله الأساسى تنظيم المحمل السنوى المسافر إلى مكة المكرمة، وإرسال المئونة للأراضى المقدسة. وإلى جانب الوالى يوجد أمراء المماليك ويلقبون (بالسناجق) وهم الحكام المحليين، ثم رؤساء (الوجاقات) أى فرق الجيش. ثم ممثلو الشعب وهم العلماء، وعلى رأسهم (شيخ الأزهر) ونقيب الأشراف، ومشايخ الطرق.

الديوان :

كوَّن السلطان سليم بعد فتحه مصر ديوانا ليمارس الوالى فيه اختصاصاته. وأدخل السلطان سليمان القانونى تقسيمًا على الديوان - **الديوان الكبير** المكلف بالأعمال الهامة، والقضايا الكبيرة، كمسائل الحرب والسلم والصلح فى المنازعات بين الأحزاب، وفرض الضرائب الجديدة أو رفعها. وكان يتلقى الأوامر من الباب العالى، كما كان مشكلا من ضباط الوجاقات وأمير الحج وقضاة المذاهب الأربعة.

أما **(الديوان الصغير)** فهو مكلف بالأعمال المحلية. وكان مشكلا من (الكتخدا) أو وكيل الوالى والدفتردار والروزنامجى وممثل عن كل وجاق.

الإدارة المحلية - وإلى جانب الوالى وديوانه والجيش (شكّل السلطان سليم ستة وجاقات أو فِرق عسكرية من الجند الأتراك الإنكشارية لحماية البلاد) وُجِد عدد من البكوات يعينهم الباشا لإدارة الأقاليم وكانت مصر مقسمة فى أول الأمر اثنى عشر إقليما، ثم ما لبث أن تضاعف عددها إلى أربعة وعشرين. كانوا من العثمانيين ثم أصبحوا يُختارون من المماليك. وكانت الولايات أو المقاطعات الكبرى تُعرف باسم (السنجقيات) ويتولى إدارة كل منها سنجق من طبقة البكوات، من المماليك. ويختص السنجق فى إقليمه بتقوية الترع والمصارف للاهتمام بشئون الزراعة التى هى المورد الرئيسى لثروة الأقاليم. وعليه أيضا حفظ النظام بالأمن وإقامة العدالة.

نائب الوالى (الكتخذار) :

وكان غالبا ما يتسم بصلة قرابة إلى الوالى. وواجباته الأساسية إدارة العاملين فى بيت الوالى وهو دار الحكم. وكان هذا الاسم يُستعمل أيضا لوكلاء الأغوات فى الوجاقات. فيطلق عليه (كَتْخُدا) الوالى تمييزا له عن غيره.

كما يوجد وظائف أخرى كثيرة مثل حامل الأختام (المُهْردار) وهو المسئول عن حفظ الأختام الشخصية للوالى والأختام الرسمية للدولة العثمانية فى مصر. كذلك يوجد **متولى الخزانة (الخازندار)** - وهو من العاملين اللصيقين بالوالى، وواجبه تولى الخزانة الخاصة بالوالى- كما يوجد الترجمان حيث كان الوالى يتحدث اللغة التركية ومعلوماته فى اللغة العربية قليلة، وكذلك كبار الرسميين العثمانيين والقضاة، وبعض المماليك المتأخرين الذين تولوا الوظائف الهامة فى مصر منذ القرن الثامن عشر، فأغلبهم كان من أصول غير عربية. ويوجد أيضا القبودان **(قبطان الموانى المصرية)** لكل من الإسكندرية ورشيد ودمياط - وكان عليه بناء وصيانة وتموين الأساطيل، وكان من حقه تنظيم التجارة الخارجية وتحصيل الضرائب ورسوم الملاحقة فى الموانى.

الحالة الاجتماعية :

لم يهتم الولاة العثمانيون بتعمير القاهرة وتجميلها مثلما اهتم الفاطميون والمماليك، بل على العكس من ذلك نهب العثمانيون الكثير من محتويات دور القاهرة ومساجدها وقاموا بنزع الكسوات التى كانت تُغطى بعض أجزاء من قلعتها ومساجدها، واستعملوا هذا الرخام فى بناء وتزيين دورهم الخاصة بالقاهرة، كما أرسلوا بعضا منها إلى تركيا للانتفاع بها. وبالإضافة إلى هذا كان حرص الولاة العثمانيين على تجميع الأموال لأنفسهم يفوق حرصهم على تجميل القاهرة وتعمير أحيائها.

والواقع أن العثمانيين حكموا البلاد بوصفهم سادة فاتحين لهم حق الاستغلال، ولهم حق الانتفاع، وعلى المحكومين من أهل البلاد أن يشقوا ويكدوا ليقدموا ثمرة كدهم صاغرين لأولئك السادة المستبدين، ثم إن العثمانيين، حكموا مصر بوصفهم (ارستقراطية) حاكمة لا يعنيهم أن يتدخلوا فى شئون البلاد إلا بالقدر الذى يحقق لهم أكبر قسط من استغلال الموارد، ولذلك ظلوا بعيدين عن الاختلاط بالمصريين، فإذا خاطبوهم أو عاملوهم إنما يكون لجمع المال أو لامتصاص أقصى ما يمكن امتصاصه من ثرواتهم وخيرات البلاد.

ولقد فرضت الدولة العثمانية نطاقا شديدا من العزلة على الأقطار العربية التابعة لها والخاضعة لسلطانها، ونتيجة لذلك قضت مصر نحوا من ثلاثة قرون تحت الحكم العثمانى، تكاد تكون مقطوعة الصلة بالعالم الخارجى.

ومعنى ذلك أنه فى الوقت الذى أخذ فيه العالم الأوروبى يتطور لينفض عن نفسه غمة العصور المظلمة، ويبنى أساس نهضته وحضارته الحديثة، إذا بمصر وغيرها من البلاد العربية التابعة للسلطان العثمانى تعيش فى عزلة شبه تامة عن تلك التطورات التى بدت تزدهر وترتقى فى العالم الغربى.

وهكذا قدر لأهل مصر أن يقضوا بضع مئات من السنين فى حالة انطواء وعزلة، الأمر الذى ترتب عليه خلق جو من الركود والجمود والانكماش عن البلاد الناهضة المتطورة.

والتاريخ يسجل على العثمانيين أنهم كانوا متخلفين عن ركب الحضارة فى مختلف عصورهم، وذلك على الرغم من مضى خمسة قرون طويلة منذ ورثوا الإمبراطورية الرومانية الشرقية واتخذوا من عاصمتها قاعدة لإمبراطوريتهم، وعلى الرغم من ذلك أيضا فقد غزوا وفتحوا الكثير من الأقطار الأوروبية وعاشوا بين أهلها بضعة قرون، ثم عادوا إلى بلادهم كما خرجوا منها دون أن يتركوا فى هذه الأقطار الشاسعة أى أثر ينم عن نشر الحضارة بين شعوبها.

ومما يثبت صحة هذا القول، احتفاظ الشعوب التى حكمها العثمانيون، بقوميتهم وثرائهم، حتى إذا ما انقشع ظل الحكم العثمانى من أوطانهم، انبعثت قوميتهم عزيزة الجانب وسايروا ركب الحضارة واستمسكوا بالحياة الحرة الكريمة.

ثروة البلاد :

ظلت مصر فى أوائل العصر العثمانى على أنها مخزن غلال الإمبراطورية العثمانية. كما كانت فى تاريخها السابق، والذى جعلها محط أطماع الفاتحين على مدى التاريخ من الفرس ثم الإغريق على يد الإسكندر ثم الرومان. فمصر بلاد خصبة وكانت أراضيها تزرع بواسطة فلاحيها بالزراعات الأساسية، من القمح والأذرة والكتان والأرز وقصب السكر، كما كانت تربية الماشية وبيع جلودها تمثل صادرات أساسية لمصر. وكان استخراج الزمرد من الصعيد والنطرون من الوجه البحرى يمثلان أيضا جانبا هاما من ثروة البلاد. أما الصناعات فكان أهمها نسج الكتان والحرير وتكرير السكر. وحتى نهاية القرن الخامس عشر كانت تجارة البهارات القادمة من آسيا إلى أوروبا مصدرا من مصادر الدخل للبلاد، إلا أن اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، بالإضافة إلى افتقاد عنصر الأمن فى البلاد، نظرا للاضطرابات الداخلية منذ منتصف القرن السابع عشر، أدى إلى فقدان البلاد جزءا كبيرا من هذه التجارة.

كما كانت مصر مزرعة لجباية الضرائب لصالح الوالى الذى يدفع منها الخراج والجزية للسلطان العثمانى. بل بالإضافة إلى ذلك كان الوالى مطالبا بإرسال مبالغ أخرى من النقود كل عام تسمى (الإرسالية) التى كانت تتضمن أيضا الكثير من المؤن، مثل الأرز والعدس ومواد تموينية أخرى لاستهلاك الجزء الشرقى من الإمبراطورية.

وكان لثروة مصر دور كبير فى حفظ مظهر القوة فى الدولة العثمانية كلها لمدة طويلة والحفاظ عليها من الانهيار.

وكانت القاهرة إلى جانب أنها العاصمة إلا أنها كانت ميناء تجاريًا هاما عن طريق ميناء بولاق النهرى. أما الإسكندرية فكانت الميناء الرئيسى لتجارة البهارات مع الغرب. وقد تضاءلت أهميتها فى نهاية القرن السابع عشر والثامن عشر بعد تحول هذه التجارة إلى البرتغال بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح. وكان ميناء رشيد ذا أهمية خاصة، لأنه الميناء الذى تمر منه السفن إلى النيل. وتمتعت دمياط بمركز هام لأنها كانت ميناء تصدير الأرز إلى أوربا والدولة العثمانية.

فلم يلبث أن أدى تطور النظام الرأسمالى فى غرب أوروبا نتيجة الانقلاب الصناعى إلى سياسة استعمارية غربية واسعة النطاق، فتسابقت دول الغرب الأوروبى فى اغتصاب أراضى أفريقيا وآسيا لتأسيس مستعمرات فيها.

وكان من الطبيعى أن يسيل لعاب الدول الاستعمارية الغربية لفكرة الاستيلاء على العالم العربى، وبخاصة مصر نظرا لما فيها من موقع ممتاز، وما هى عليه من الاضطراب والانهيار والتقهقر الذى حاق بالبلاد بسبب ضعف الحكومة المركزية فى الدولة العثمانية علاوة على افتقاد عنصر القوة العسكرية، مما يجعله حقلا واسعا لنشاط الاستعمار وتصريف منتجاته.

وهكذا دخلت مصر، ميدانا للتنافس بين الاستعمارين الفرنسى والإنجليزى وبدأ نابوليون فى تجهيز حملة على مصر، قام بها سنة ١٧٩٨م.

أما عن الناحية الفنية، فقد جاء الفتح العثمانى إيذانا بتدهور الفن المصرى الإسلامى، وتأثرت البلاد بما قام به السلطان سليم الأول من نقل أساتذة الحرف والفنون إلى القسطنطينية فينخفض مستوى الإنتاج الأصيل ولا يستطيع الفنانون الباقون الارتفاع بمستوى إنتاجهم المتأثر بالتقاليد العثمانية إلى مستوى هذا الإنتاج الأصلى. وبالرغم مما قام به السلطان سليم فإن الأساليب المصرية لم يُقدر لها الاختفاء كلية وتظل مستخدمة فى بعض المبانى.

وهكذا يُقدر للفن المصرى الإسلامى الاختفاء بانقضاء هذا العصر وخضوع البلاد للتأثير الغربى. وذلك التأثير الذى كان له أثره ليس فى مصر فقط بل فى كافة أرجاء العالم نتيجة انتقال الأساليب الفنية الغربية والخضوع للسيطرة الغربية، وولوع الشرقيين بتقليد الغربيين ذلك التقليد الذى كان له أثره السيء فى النواحى الثقافية والفنية والقومية. ويُقدر للأساليب الفنية الإسلامية أن تنكمش فتظل ممارسة بعض الصناعات كذكرى لهذا المجد الخالد.

الفصل الثانى
المنسوجات فى العصر العثمانى

ازدهرت صناعة النسيج فى الإمبراطورية العثمانية، حيث وصل إلينا من المنسوجات التركية العثمانية الوشى والمخمل، ويرجع بعضه إلى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى.

وكانت (بروسة) هى العاصمة الأولى للأتراك العثمانيين والمركز الرئيسى لصناعة النسيج بها.

ولا تختلف رسوم الوشى والمخمل التركى عن مثيلاتها من المنسوجات الإيرانية، إلا اقتصار الزخرفة فى المنسوجات التركية على أشكال الأزهار، وتجنب الفنانين من رسم الكائنات الحية استجابة لأحاديث النبى ﷺ التى تُحرم مثل تلك الرسوم - (كقوله ﷺ : لعن الله المصورين).

ولما جاء الفتح العثمانى كان أهم منتجاتها الديباج والمخمل، وهو ما أطلق عليه (القطيفة) ومعظم هذه المنتجات كانت فيما بين القرن العاشر والقرن الثالث عشر.

وظلت مصانع النسيج بالقاهرة تنتج منسوجات ذات موضوعات تركية، وأهمها زهور القرنفل والخزامى والسوسن.

وقد كان إنتاج المصانع القاهرية فى عصر العثمانيين محدودا جدا حتى طغت المنتجات الأوروبية على أسواق القاهرة، وخاصة المنسوجات الإيطالية والهندية والإيرانية.

وكانت الألوان التى تسود تلك الأقمشة فى العصر العثمانى، لا تخرج عن لونين أو ثلاثة. مثل الذهبى والأحمر فقط، أو الأزرق والأحمر والذهبى، وغالبا ما تكون الأرضية حمراء، كما قد تكون أحيانا باللون الأزرق أو الأخضر أو الأرجوانى. واستخدمت أكثر الأقمشة الموشاة فى عمل الملابس.

كما غلب على منسوجات القاهرة أيضا اللون الأحمر والأخضر والأرجوانى ونسج بعضها بخيوط الفضة المذهبة، تقليدا لإنتاج مراكز النسيج التركية بآسيا الصغرى، وخاصة بروسيا.

وبعد ذلك بدأت الأقمشة والملابس المستوردة تغزو أسواق القاهرة، وتلقى إقبالا شديدا من الناس، لا لما تتميز به من جودة وإتقان فحسب، بل لأن الإنتاج المحلى فى العهد العثمانى تخلف عن الوفاء بحاجة البلاد تبعا لما أصاب كل الصناعات من تخلف واضح فى هذا العهد

المظلم البغيـض، لاسـيما ونحـن نعلـم مـا فعلـه الأتـراك مـن ترحيـل أربـاب الحـرف المختلفـة والصناعات المصرية خاصة الممتازين منهم إلى الآستانة بفنهم الجميل، وإنتاجهم الغزير.

ثوب تحتانى (تحتانية) – تفضلا من دار الآثار المصرية
«متحف الفن الإسلامى»

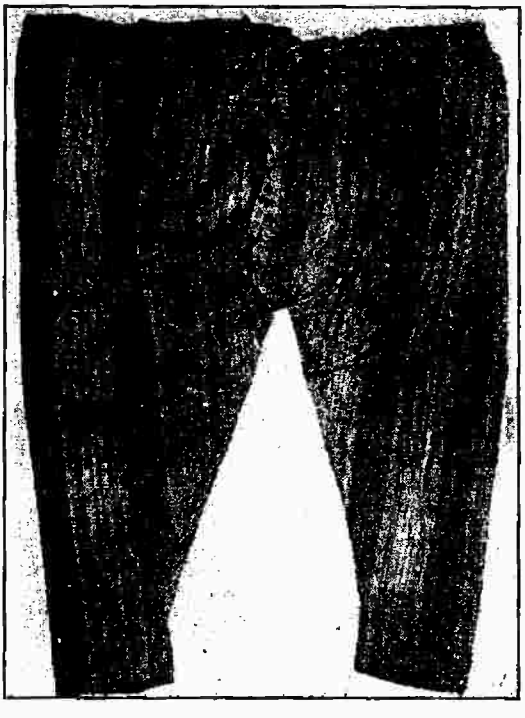

سروال – تفضلا من تحف السانكانتينير
Museede Cinquantenaire.

(٢)

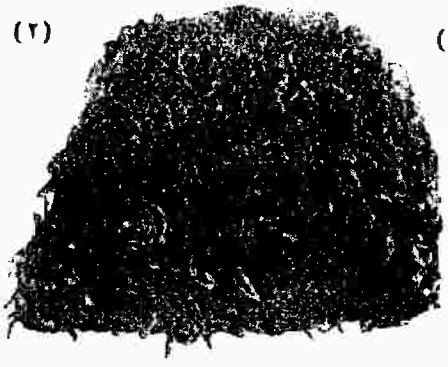

(١)

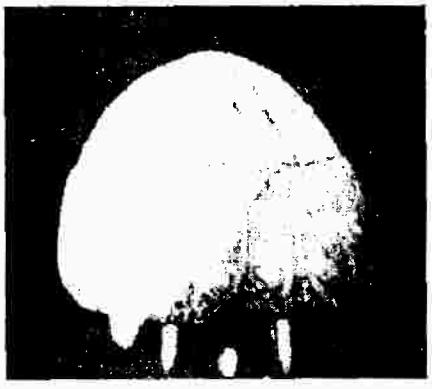

الصورة رقم (١) الطاقية – تفضلا من دار الآثار العربية / متحف الفن الإسلامى، والصورة رقم (٢) زمط – تفضلا من المتحف القبطى.

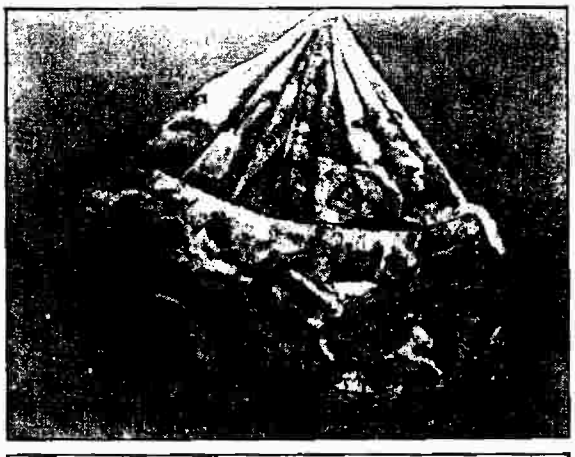

(٣)

(٤)

الصورة رقم (٣) لطاقية أعدت أصلا بالريش، ومن المحتمل أن تكون نموذجا مبكرا للكوفية – تفضلا من متحف فكتوريا والبرت. والصورة رقم (٤) الطاقية – تفضلا من اتحاد كوبر بنيويورك.

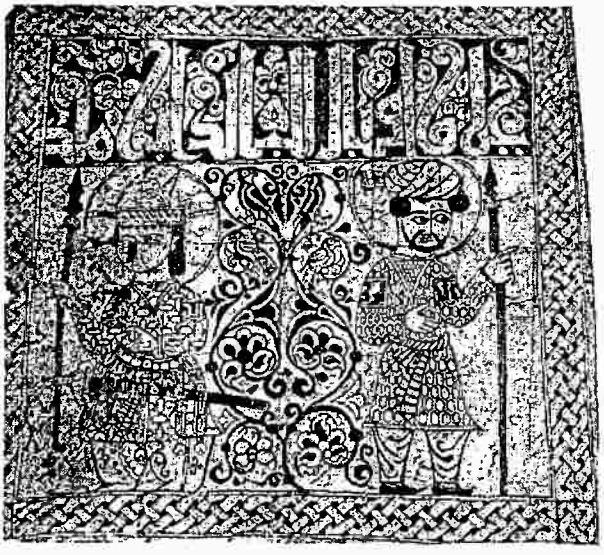

رسم بالحبر على ورق يمثل محاربين يمسكان بالسيوف ويظهر فيه الزى والسروال وغطاء الرأس والمركوب (من العصر الفاطمى).

أحد الحمامات التى تذكر كثيرا فى حكايات ألف ليلة وليلة عندما يتجه إليها التجار والأغراب.

استقبال سفير من البندقية -- تفضلا من متحف اللوفر وأرشيف الصور الفوتوغرافية.
يبين مختلف الملابس والعمائم ومدخل القصر.

أحد مجالس الطرب
من كتاب أخلاقيات وعادات المصريين. (لين). يتضح فيها أزياء الرجال وغطاء الشعر.

أحد رجال الانكشارية

الانكشارية ومعناها الجيش الجديد، يحل محل الجيش النظامى – وقد أصبح هو جيش الدولة.

بعض رجال الحامية العثمانية فى مصر

١ – يرتدى السروال القصير وعليه الحزام – القميص وغطاء الرأس.

٢ – يرتدى السروال القصير الواسع عليه التحفيفة وغطاء الرأس ويمسك بالسيف.

٣ – يرتدى الجبة الطويلة – والحزام عليه عمامة التحفيفة الكبيرة ويظهر الخف.

٤ – يرتدى معطفا إلى تحت الركبة تحته السروال الطويل والحزام والعمامة

السلطان سليم الأول
يرتدى الكاملية من الخمل يحيط بها فراء.

السلطان الغورى
يرتدى التخفيفة الصغيرة. والكاملية يحيطها الفراء — شعر طويل. ويظهر غطاء الرأس العالى.

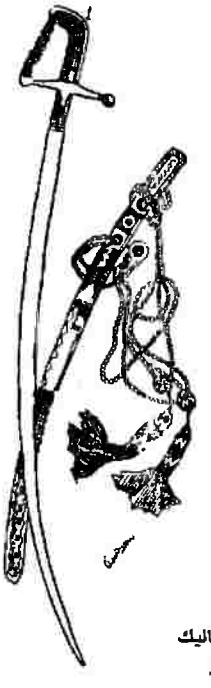

استعمل رجال المماليك
السيوف المطعمة الثمينة.

شكل يبين مملوكًا بكامل ملابسه الحربية.

السيف عند العرب.

من الزجاج المزخرف بالمينا (من العصر المملوكى)

(أ) كسرة من إناء عليها رسم شخص جالس يضرب على الدف.

(ب) كسرة من إناء عليه رسم رأس.